

حول أصول حركات الشكل ودلالاتها

الحلقة الخامسة :

أولاً : حول إماتة الحروف الجوفية في اللغة العربية :

لقد انتبهنا من الحلقة السابقة إلى أن الانسان العربي قد عمل على إماتة الحروف الجوفية (الألف اللينة والواو والياء) في ألفاظه لسببين :

- 1 - ففقر أصواتها بالموجيات الحسية والشعورية ، فانصرف عنها ما استطاع لعجزها عن التعبير عن أحاسيسه ومشاعره الانسانية في معانيه المستجدة عبر مراحل الثقافة المتطورة .
- ب - عدم استعدابه غوغائية أصواتها في لغته الشعرية الراقية . وكان ذلك بترجيح شديد بفعل الشعراء أنفسهم .

ولقد اتبع العربي في ذلك كما لاحظ العلابي ثلاث طرائق .

- 1 - بالاستعاضة عن الحروف الجوفية بحروف صامتة ، وفي مقدمتها الهمزة . بعضها قد أميت كما في (وحي) قد تحولت إلى أخي . وبعضها لا يزال حياً ، كما في (بئر من بئر ، أحد من واحد ، أطم من وطم ، نشر من

وشر ...) وذلك كثير .

- ب - بالتضعيف كما في (نب) من نبي ، وبالحذف ، كما في (أب - أم - دم) من أبو أبوة ، أمو أمومة ، دمو دمويأ ...).
- ج - بتحويل الحروف الصائتة إلى حركات - كما أسلفنا في الحلقة السابقة - وذلك بدليل بقاء هذه الحروف في بعض الكلمات كتابة دون لفظ ، كما في (عمرو - أولئك) .

ولكن على الرغم من المحاولات المتنوعة لاماتة الحروف الغاية في اللغة العربية ، فإنها لا تزال تحتفظ بأهمية فائقة لا يحظى بمثلها أي حرف عربي آخر ، وذلك في قطاعين لغويين اثنين .

الأول قديم سابق للمرحلة الرعوية الشعرية قبل أن يعمل العربي على إماتتها ، هي قطاع حروف المعاني .

والثاني حديث من نتاج المرحلة الرعوية الشعرية ذاتها ، هو قطاع حركات الشكل . ولكن لما كانت الحروف الزراعية الایمائية تشارك الحروف الغاية في تراكيب معظم حروف المعاني ، فإننا سنكتفي هنا بتوضيح علاقة معاني حركات الشكل

أما الحال ، فقد نصب بالفتحة ، إما لوقوع الفعل عليه ضمناً بصورة غير مباشرة : (سرت والنهر) ، أو للثبات والاستقرار : (هذا الهلال طالماً يقشع الظلام)

وفي كل الأحوال فإن هذه الأسماء المنصوبة لاتدل معانيها على فعاليات كيما ترفع بالضممة ولا على الاحتواء ، أو الامتلاك ، أو على حالات ذاتية فتجر بالكسرة ، كما سيأتي وشيكاً .

2 / الضمة :

هي مخفف صوت (الواو) قد جعلت علامة الفاعل والمبتدأ للفعالية ، وعلامة الفعل المضارع للاستمرار ، إرثاً عن خصائص (الواو) ووظائفها . ولا متسع هنا للاستمرار في هذا المسار لتعليل رفع اسم كان وأخواتها أو نصب خبرها ، ولا العكس مع (أن) وأخواتها ، وما يعمل عملها . وما أحسب أن تعليل ذلك سيكون أعسر ولا أغرب مما أتى به فقهاء اللغة العربية حول الكثير من إشكالاتها .

3 / الكسرة :

هي مخفف صوت (الياء) . قد جعلت علامة المجرور باحد حروف الجر ليتحمل اعتداء الفاعل بواسطته : (سار على الطريق) . كما جعلت علامة جر المضاف إليه : للامتلاك (كتاب المعلم) أو للنسبة (دمع العين) ، أو للاحتواء : (سمك البحر) ، وذلك إرثاً عن خصائص الياء ووظائفها في الاحتواء والامتلاك والنسبة . ولم يخرج الغلايني عن ذلك في تحديد وظائف الاضافة .

ثالثاً : حركات الشكل و (عين) الفعل الثلاثي :

إن أبرع استعمال لحركات (الضممة والكسرة والفتحة) يتجلى في تحريك (عين) الفعل الثلاثي . فقد

بخصائص الحروف الجوفية الثلاثة . أما الحديث عن حروف المعاني ، فسنبؤجله إلى ما بعد الانتهاء من تحديد معاني بعض الحروف الزراعية الایمائية والرعية الایمائية التي تشارك في تراكيب حروف المعاني موضوع هذه الحلقات .

فعملية تحويل هذه الأصوات الغوغائية إلى حركات ، لا ألطف على اللسان لفظاً ، ولا أرق في السمع جرساً ، ولا أخطر على المعاني استعمالاً ، إنما هي أشبه ما تكون بعملية تحويل المادة البترولية الخام إلى مشتقات ، لأنقى طبيعة ، ولا أشف منظرًا ، ولا أخطر استعمالاً . وكل منهما كان قبل التحويل ، خاماً ، وغوغائياً .

ثانياً : حول دلالات حركات الشكل :

1 / الفتحة :

هي مخفف (الألف اللينة) . قد جعلها العربي في نهاية الفعل الماضي ، للاستقرار : (من مات فات) . كما جعلها في نهاية المفعول به للاستكانة والاستقرار . وذلك لأن صوت (الفتحة) في نهاية الكلمة يلفظ بأخفض نبرة ، مما يجردها من كل فعالية ، على العكس مما وقعت في أول الكلمة أو وسطها . وقد لحظنا أننا أن الألف اللينة في نهاية حروف (لا . ما . كلا) تشير إلى مواقف الرفض والنفي ، ضرباً من الثبات والاستقرار .

وقد استثمر الانسان العربي خصائص الاستكانة والاستقرار والثبات في حركة الفتحة ، فجعلها في نهايات الأسماء المنصوبة بما يناسب أغراضها . قد جعلها علامة نصب المفعول (به) ، وفيه ، ومعه ، والمطلق) ، والمنادى ، والمستثنى بإلا ، والتمييز لأنها تتحمل جميعاً فعل الفاعل إما مباشرة ، وإمماً بصورة غير مباشرة ، بواسطة حرف أو فعل محذوف مقدر .

بلغ العربي في هذا المضمار شأواً بعيداً من زهافة الأحاسيس والمشاعر ، في ترف لغوي لا نظير له .

1 - قد وكل إلى (الضمة) في عين الفعل الثلاثي مخفف صوت (الواو) ووريتها مهمة التعبير عن الفعاليات المنبثقة من الذات ، كما في (أدب ، شُرف) نُبُه . رزُل ، خُبُث) فكانت أفعالها لازمة إطلاقاً لاكتفائها الذاتي وعدم حاجتها إلى أي مفعول .

2 - وוכל إلى (الكسرة) مخفف صوت (الياء) ووريتها ، مهمة التعبير عن حالات وصفات ذاتية ، مما ينبغي معها أن تكون أفعالها لازمة لاكتفائها الذاتي ، كما في (أسيف . حزن . حقد . وجل . درد . سود .)

ولكن لوحظ أن قلة من الأفعال قد شذت عن هذه القاعدة وذلك لسببين اثنين :

1 - إما لأن معاني بعضها يدل على حركة باتجاه الذات ، كما في (لِغف ، لِقِف ، لَغِف ، لِهَم . عشيق)

وقريب من ذلك فعل (شَكِل) لاتجاه هذه الفاجعة نحو ذات الوالدين حصراً .

ب - وإما لتصحيف في نقل حركة الشكل أثناء التدوين في بداية العصر الأموي ، كما في فعل (عِدِم المال) ، مما لا يدل على حالة ذاتية . فكانت الفتحة أولى به ، كما سيأتي :

3 - وוכל إلى الفتحة مخفف صوت (الألف اللينة) ووريتها ، مهمة التعبير عن الفعاليات المتجهة من الذات نحو الآخرين في الأفعال المتعدية . فحركة (الفتحة) في هذا الموقع إذا لفظت مفخمة ، كما كان العربي يفعل ذلك قبل المرحلة الشاعرية ، تمنح الأفعال مرتقى يساعدها على الاعتداء فيما إذا كانت مضامينها قابلة له ، كما في (أمر . ضَرَب . كَسَر . دَهَس ...) . أما

إذا لم تكن قابلة للاعتداء فتظل لازمة كما في (أرز . بَقَع . بَقَل . جَنَح . حَضَج . دَجَن) .

وتأكيداً لهذا النهج ، فإن الفعل الثلاثي الواحد الذي حركت (عينه) بأكثر من حركة يلتزم معناه بما يتلاءم مع خصائص حركته ، كما في (أصل) .

فإذا حركت (عينه) بالفتحة كان متعدياً (أصل الشيء) استأصله . وإذا حركت بالكسرة دل معناه على حالة ذاتية وكان لازماً (أصِل اللحم) فسَد . وإذا حركت بالضمة كان لازماً ويدل على فعالية منبعثة من الذات : (أصل النسب) . شُرف . وكذلك الأمر في (لحم) بالفتح والكسر والضم : لَحِم الشيء لأمه - ولِحِم بالمكان نشب - ولِحِم الرجل ، كَثُر لحمه .

وكما في معاني الأفعال التالية بتحريك (عينها) بالفتح أولاً وبالكسر ثانياً : (أَكَل الطعام ، مضغه ، وبلعه - أَكِل الرجل ، أَكَل بعضه بعضاً - أَشَر الخشب ، نشرها - أَشِر ، مرح وبطر - لَسَن فلاناً ، عابه - لَسِن - فَضَح - لَعَسه - عضه - لَعِسَت الشفة ، اسود باطنها - عَرَق العظم ، أَكَل لحمه - عَرَق ، رشح جلده - لَفَت الشيء ، لواه - لَفَت الرجل ، حمق - عَفَص يده ، لواه - عَفَص الطعام كان فيه مرارة وتقبض) .

وهكذا نستطيع اليوم أن نصحح الكلمات التي أصابها التصحيف أثناء التشكيل في تحريك (عين) الفعل الثلاثي بالرجوع إلى هذا النهج ، كما في (عقم) .

فقد ورد في المعجم الوسيط (عقمت المرأة والرجل (بالفتح) ، كان بهما ما يخول دون النسل . ويقال ، عقم الله المرأة والرجل ، جعله عقيماً) . كما ورد فيه أيضاً : (عقمت المرأة والرجل (بالضم) ، عَقِماً فهو عقيم وهي عقيم ...) .

وبالرجوع إلى القرآن الكريم ، لوحظ أن مشتقات هذا الفعل قد اقتصر على المصدر (عقم) في أربع آيات فقط .

وإذن لا حرج في أن نقول بأن الأصح أن تحرك عين (عقم) بالفتح للتعدي : (عَقَمَهُ اللهُ وَعَقَمَهَا) . وإن تحرك بالكسر لمعاني العقم الحسية والمجازية وليس بالضم . وذلك لأن العقم عجز ذاتي وحالة ذاتية ، تتوافقان مع خصائص الحركة الایمائية في الكسرة إرثاً عن (الياء) الغائية كما أسلفنا . فالعقم ليس فعالية ذاتية كيما تحرك عينه بالضم . وهذه الظاهرة من التصحيف غير نادرة في اللغة العربية .

فباستعراض الأفعال الثلاثية التي تبدأ بالهمزة في المعجم الوسيط عثرنا على (155) فعلاً كان منها (7) أفعال حركت عينها بالفتح والكسر لذات المعاني ، وكانت لازمة جميعاً . وهي ((أَبَقَ - أَرَمَ - أَسِنَ - أَفَرَ - أَفَقَ - أَقَلَّ - أَلَبَّ .)) .

ونرى أن ما يدل معناه فيها على حالة ذاتية يكتفى بتحريك (عينه) بالكسر فقط وهي ((أَسِنَ الماء ، فسد ، أفر ، نشط - أَلَبَّ الجرح - برىء ظاهره دون باطنه فانفض)) . وأن تحرك (عين) الباقي بالفتح فقط : ((أَبَقَ - هرب - أَرَمَ على الشيء ، عضه - أَفَقَ ، ضرب في الآفاق - أَقَلَّ النجم ، غاب) .

وكان ثمة فعل واحد حركت عينه بالحركات الثلاث ، هو (انس) لذات المعاني : ((أَنَسُ به ، فرح - انس إليه ، سكن إليه وذهبت به وحشته)) .

ونرى أن يكتفى بتحريك (عينه) بالكسر فقط ، لأن معانيه جميعاً تدل على حالات ذاتية وليس على فعاليات ذاتية .

وبالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرنا على 188 / فعلاً ثلاثياً تبدأ بحرف (اللام) و (67) تبدأ بحرف (الثاء) و (210) تبدأ بحرف (العين) .

وبدراسة معاني هذه الأفعال على واقع حركة عينها ، حصلنا على نتائج مشابهة لما لحظناه مع حرف (الهمزة) ، مما يؤكد صحة ما أسندناه إلى حركات الشكل من الوظائف اللغوية . فما حركت (عينه) بالضم كان لازماً ويدل على فعاليات ذاتية . وما حركت (عينه) بالكسر كان معظمه لازماً ويدل على حالات ذاتية - أما المتعدي منها فكان معظمه يدل على حركة باتجاه الذات ، وقلة منه كان مصحفاً . وأما ما حركت (عينه) بالفتح فكان معظمه متعدياً .

ولقد ذكر الغلايني في كتابه (جامع دروس اللغة العربية) ، خصائص الضمة والكسرة في (عين) الفعل الثلاثي ، بما يقارب ما عرضناه آنفاً . فمضموم (العين) كما لاحظ يدل على الغرائز والطبائع الثابتة وهو لازم إطلاقاً . أما مكسور العين فهو يدل على أمراض وعيوب وألوان مما يدخل في نطاق الحالات الذاتية ومعظمها لازم .

ولكن الغلايني لم يتعرض لحركة الفتح ، ولم ينتبه أيضاً إلى العلاقة بين خصائص الضمة والكسرة الموروثة عن خصائص (الواو والياء) ، وبين معاني الأفعال الثلاثية ، على وجه ما بيناه آنفاً .

وهكذا استسلم الغلايني للتراث سيراً على نهج من سبقه من علماء اللغة وأصحاب المعاجم في تحديد حركات (عين) الفعل الثلاثي ، دون أن يعير مسألة التصحيف فيها أي انتباه .

فما أن الكتابة العربية لم تعرف الشكل حتى ما بعد جمع المصاحف في عهد الخليفة (عثمان) على يد الفراهيدي فإن شكل (عين) الفعل الثلاثي على السماع ، من المحتمل أن يكون قد تعرض بعضه إلى

التصحيح وإني لأتساءل :

أولا تستحق هذه الظاهرة اللغوية المزيد من
اهتمام المجامع اللغوية وعنايتها؟

وهكذا باعتماد الانسان العربي هذه الحركات
المتأنية عن الحروف الجوفية الثلاث في ضبط التلفظ

بأصوات حروف كلماته بمعرض تحديد صيغها
وظائفها ومعانيها ، تكون جذور هذه الحروف قد
تغلغلت إلى كل شاردة وواردة في فصحانا العربية ،
مما يمنح شخصياتها قوة فائقة وينهض بها إلى أرفع
المقامات .